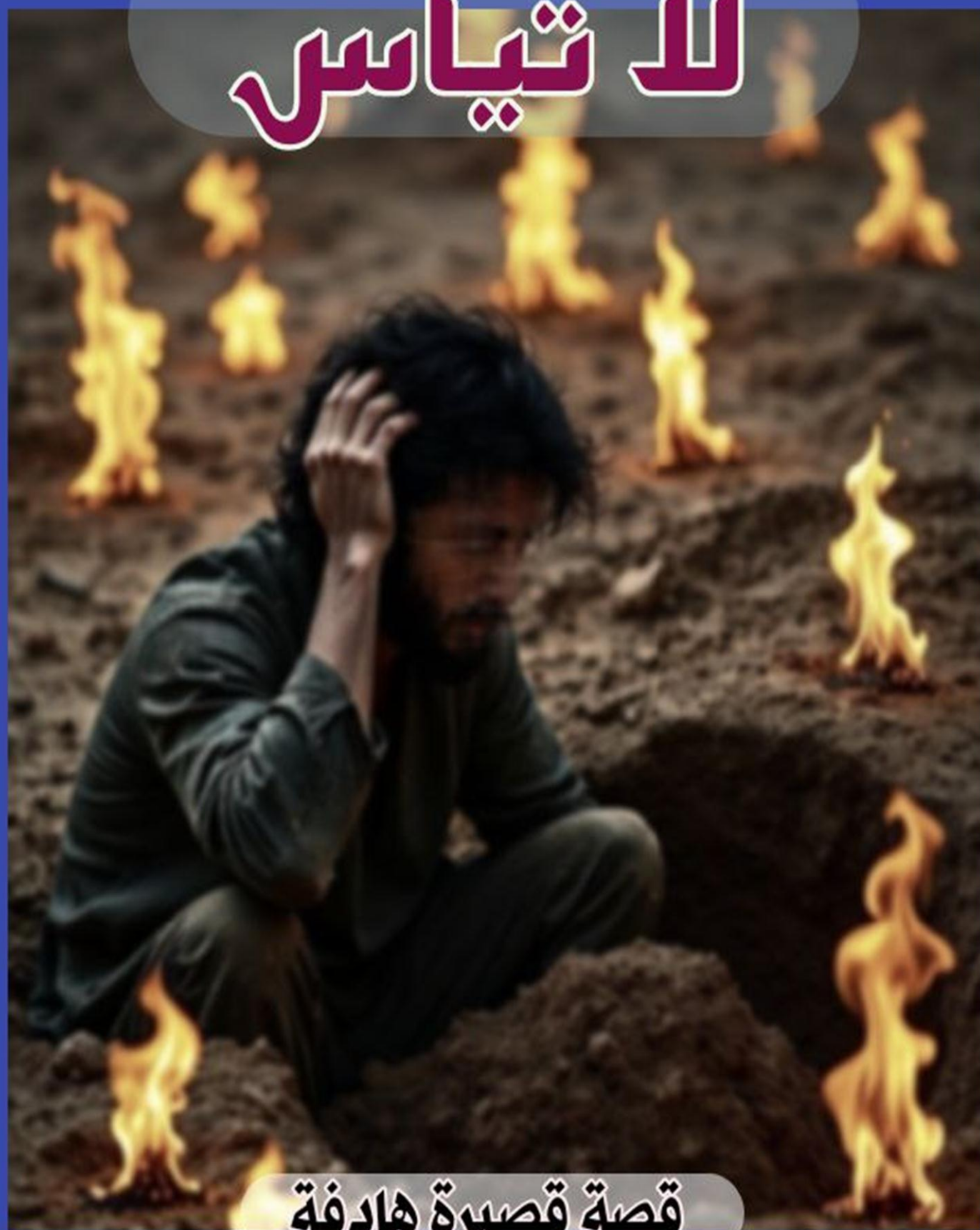


لا تياس



قصة قصيرة هادفة

وليد الشويلى

تَوَطُّة

* عن رسول الله (صلى الله عليه و آله): التائب إذا لم يستب عليه أثر التوبة فليس بتائب، يرضي الخصماء، ويعيد الصلوات، ويتواضع بين الخلق، ويتقي نفسه عن الشهوات، ويهزل رقبته بصيام النهار .

* عن الإمام علي (عليه السلام): التوبة على أربعة دعائم: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وعمل بالجوارح، وعزم أن لا يعود.

* من مناجاة التائبين: الهي انت الذي فتحت لعبادك بابا الى عفوك سميت التوبة، فقلت (تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)، فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه، الهي ان كان قبح الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك، الهي ما انا باول من عصاك فتبت عليه، وتعرض لمعروفك فجدت عليه...

خطوات العدو اللدود

في ظلام احدى الليالي المعتمة تعالت صيحات المشيعين بين حاملٍ لجنازة عزيز فارقهم عن قريب و مشيعٍ لهم يمشي على اثرهم مرددا؛ انا على اثره سائرون فهو لنا سلف ونحن له خلف ... لا يُرى منهم الا ذلك الغبار المتصاعد من تحت أقدامهم التي تُجر جرا، اثقلها فقد حبيب و مصاب عسير، لا يرى المشيعون أمامهم الا ما ينيره لهم مشعل حمله رجل سبقهم هاتفا:

- لا اله الا الله محمد رسول الله

وصلوا الى المثنى الأخير، المثنى الذي لا مهرب منه ابدا، أنزلوا المحمول على الارض تمهيدا لنقله ثلاثا فخفت الأكتاف وارتفعت الأصوات بين باكٍ و نادب و ذاكِر مهلل او مسترجع، وعلى تلك الحال فرغوا من دفن فقيدهم و مواراته، انصرفوا تاركين خلفهم رجلا سرعان ما التحق بهم بعد ان لَقْن الوافد الجديد الى بيت الدود والغربة تَلْقِيناً أخيرا... اخذ الضوء يخفت كلما ابتعدوا شيئا فشيئا حتى استحكم الظلام و قد غفلوا عن شرير كامن خلف احد التلال القريبة منهم ينتظر مغادرتهم حتى يفتك بالمسكين و ينبئه ان ظلم الدنيا تبكك حتى قبرك ... سريعا فعل فعلته، جَرَّد عن الميت قطعاته الثلاث التي يخرج الانسان من الدنيا بها دون غيرها مهما جمع من المال وفاخر الثياب، هذه هي الحقيقة المطلقة؛ فانه كما جاءها فقيرا سيخرج منها فقيرا ... ارجع الجثة عارية

الى حفرتها، سد عليها القبر بالتراب وسوى الارض كما كانت، عاد
خلف ذلك التل مُنْهَكًا يلهث، نظر إلى يديه قد غطّاهما التراب ونفسه
تخاطبه:

- كيف وصل بك الأمر إلى هذا الحال؟!
ليس الذنب ذنبي فالفقر اجبرني على السرقة، و سرقة الأموات
الذين لا حول لهم ولا قوة أهون من سرقة الأحياء
أليس هذا الفعل خاطئاً؟!
نعم، ولكنني مضطر لهذا فالجوع والفقر ارغماني عليه
ما أجمل هذه الكلمات! لقد سمعتها قبل سبع سنوات تقريبا، عند أول
ليلة لك هنا، والتي كانت أولى الخطوات التي قادتك الى ما انت
عليه الآن، وهذا التل شاهد على ما أقول...
نعم، نعم، أتذكر ذلك اليوم جيدا، وَ لكنني ما زلت أعاني الحرمان
والحاجة وألم الجوع و الفاقة
صاح ذلك الشاب الذي اخفى الترابُ الممتزجُ بعرق جبهته جمالَ ملامحه
و بياضَ وجهه:

- تبا لي ولنفسي، تبا لي ولنفسي، ما ذنبي أنا اذا كان الفقر قد كُتِبَ
عَلَيَّ فلازمني.

بهذه التبريرات و أمثالها صَمَّ سمعه عن نداء نفسه اللوامة فقام و غادر
المكان مسرعا بعد ان نفض التراب عن وجهه و ثيابه، أَسْرَعَ ليغسل
الكفن المسروق حتى يبيعه صبيحة اليوم اللاحق، ثم ينتظر راحلا آخر
ليسلبه كفنا ربما هو باعه عليه بعد ان سرقه من أجساد متلاحقة وجثامين
متعاقبة.

ناقوس الخطر

مرت الأيام والليالي وما زال ذلك الشاب على حاله يغط في غفاته وقد تدثر بطول الأمل بعد ان برر له الشيطان عمله يسوقه الى الحضيض شيئا فشيئا حتى اذا تمكن منه تماما تبرء منه وذمه .

في صبيحة احد الأيام أيقظته صرخات نساء قادمة من بيت احد انصار رسول الله (صلى الله عليه واله) يبكين فتاة شابة عاجلتها المنية فارتحلت عنهم سريعا فالموت لا يعرف صغيرا ولا كبيرا ، لا رجلا و لا امرأة.

تَقَصَّى الخبرَ كعادته فعرف موعد تشييعها ثم شاركهم فيه حتى وقف على موضع قبرها و عاين دفنها بل و حثَّ التراب عليها ثم انصرف معهم حينما قفلوا راجعين يُصَبِّرُ بعضهم بعضا و يواسيهم بعضٌ آخر محاولا تسلية قلب امها او ابيها.

أعدّ اللص عدته وجَهَّزَ أمره منتظرا الليل يلقي بظلامه فيتخذ سترا ليرتكب جريمته التي اعتاد عليها فأتقنها بعد سنين طوال فما اسرع ان حفر القبر الطري وازال التراب الرطب وحمل الجنازة على كتفه فرفعها عن الحفرة وطرحها عند حافة القبر، خرج من القبر ينفذ التراب عنه ، نظر يمينا وشمالا مخافة ان يراه احد غافلا عن خالق الخلق الذي لا يخفى عليه شيء ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا اصغر ...

شرع بنزع ما عليها من الاكفان فجردها، رأى بياض جسمها و رِقّة جلدها، لم يعبأ بذلك ولم يَرُقْ قلبه لحالها، وأنى له ذلك وقد أحاطت به خطيئته!

ارتبك قليلا و هو يلح ذلك الجسم الجميل فارتعدت فرائصه و همّ بالمغادرة و تَرَكها على شفير القبر على تلك الحال ... ابتعد عن الجثمان خطوات فاسرع اليه الشيطان يُزيّن له الفاحشة فانها فرصة مؤاتية ليوغل رأس عبده هذا في الخزي و العار ويستحكم هلاكه و يتيقن ان مصيره جهنم.

نار خبيثة همست في أذن الشاب المنغمس في الخطيئة:

- الى أين ؟
- الى بيتي لأنظف هذا الكفن حتى أبيعته
- لِمَ تركت الجثة و لِمَ تنزلها الى القبر؟ هل خفت جمالها؟ هل رأيت جمال بياضها؟ هل رأيت حلاوة وركيها؟ كيف احسن الخالق صنعها!
- نعم، رأيت ذلك ولكني لا افعل هذه الأمور ... نعم، انا اسرق الاكفان لأنني مضطر لذلك ومحتاج لثمنها، أمّا
- أمّا ماذا؟ انك شاب وتحتاج لمثل هذا، ثم انك فقير لا يمكنك الزواج أصلا، أنسيّت ذلك؟! إنّها فرصة مؤاتية هيا ارجع واغتنمها... ثم انك قد نبشت القبر وسرقت الكفن فهذه مخالفة و ما تلك الا مخالفة أخرى كالأولى و لا فرق بينهما، هيا اغتنم الفرصة و افعل ذلك، لبّ رغبتك واشبع نزوتك ثم ان شئت تب فانك في مستقبل العمر.

توقف الغافل متحيرا، بدأت تروقه الفكرة، ما هي الا لحظات حتى اقتنع فعاد حيوانا شرساً جشعاً نهماً، تبرق عيناه شرا ويسيل لعابه خبثا وذلا، فعل الفاحشة و مارس المنكر ... قام

منتشياً بالحرام سكرانا بالآثام مترنحا ترنح اللئام تاركاً ضحيته
المجني عليها من ورائه بلا ستر على حافة القبر يكاد الصبح
يبيديها عن قريب للاعيان.

ما هي الا خطوات حتى نادته تلك الجثة الهامدة فصك مسامعه
صوت من ورائه:

- يا شاب الويل لك من ديان يوم الدين، يوم يوقفني وإياك كما
تركنتني عريانة في عساكر الموتى، و نزعنتي من حفرتي و
سلبتني أكفاني، وتركتني أقوم جنباً إلى حسابي، فويل لشبابك
من النار.

صُعِقَ الشاب فجفل، وَقَعَ ما بيده و ذُهِل

- النار، النار، النار ... الويل لي من النار

هَامَ على وجهه في البیداء لا يدري ماذا يفعل متلبكا مترددا
خائفا مخاطبا نفسه موبخا:

- ما الذي فعلته؟! كيف وصل بي الحال الى ارتكاب هذه
الجريمة القبيحة؟! الويل لي من فعالي

بكى كثيرا واذا بصوت دافئ ينبع من خبايا قلبه يحمل له حلا
ناجعا ومخرجا مما هو فيه؛

- بدل البكاء قم واستجمع عزيمتك وتب الى الله تعالى فانه
ارحم الراحمين

- نعم نعم لا بد ان أتوب... و لكن، هل سأوفق للتوبة؟ و ان
وُفِّقْتُ فهل سيقبل الله توبتي؟ أبدأ، لا توبة لي مع عظيم
جريرتي وسوء فعلتي... عن أي توبة أتحدث وأي مغفرة
أتأمل.

- هذا ليس كلامك، انه وسواس الشيطان الخبيث الذي كان يُزين لك فعالك و يُسوِّفُك بالتوبة، انه الآن تخلي عنك و قام يُثبِّطك عنها

- و ليكن ان المتكلم هو الشيطان كما تقول لك نفسك... ولكني أتكلّم بالعقل و المنطق، فبأي وجه تلاقى ربك؟! و بأي لسانٍ تطلب منه؟! و أي يد ترفعها اليه؟! أبلسان اعتاد الحرام! أم بوجه سودتُهُ الذنوب والآثام! أم بيدين طالما سرقتا الاكفان! عجباً لك أَمَا تستحي أَمَا تخجل من نفسك؟! ثم لو توجهت وطلبت التوبة أتراه يسمعك و يستجيب لك طلبا بعد ان خالفت أوامره و ارتكبت نواهيه؟!!

- لا تستمع للشيطان الرجيم و لا تغفل عن القران الكريم، أَلَمْ يعصِ الشيطان أمرا مباشراً من العلي الأعلى ثم بعد معصيته مباشرة تجرأ الشيطان طامعا عدله تعالى فطلب منه فسمعه الله واستجاب له طلبه؟ ألا تتذكر تلك الآيات التي كان أبوك يرددها في بعض الأيام؟ الا تتذكر كيف كنت تصغي اليه وهو يقرأ قول الرب الرحمن " ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم " انظر انه تعالى قد طرده من ساحة رحمته الى يوم الدين فلعنه، و مع ذلك أجابه

حينما طلب منه فأملهه، أما أنت فلست بأسوء حالا من الشيطان اللعين فانك مشمول بخطاب الرب الرؤوف الرحيم إذ يقول "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم"

- صحيح ما تقوله لك نفسك، ولكن هناك أعمال لا يمكن ان تُغفرُ أبداً ومنها فعلتك هذه
- تبا لك أيها الوسواس الخناس، أعوذ بالله منك أيها الرجيم، يا هذا لا تصدق من وسواسه شيئا و اجعل نصب عينيك و عَدَّ من لا يخلف الميعاد " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"

خَسَّ الشيطان واعتلى أملُ العفو والغفران، جثى الشاب على ركبتيه وحثى التراب على راسه ... لَمْ يَشْفِ ذلك غليله ولم يبعد صورة النار عن خاطرته و لم يُغَيِّب صوت الفتاة عن أذنيه، لطم وجهه بيديه ... اخذ يلطم وجهه وهو يصرخ:

- تبا لي ولجراتي على سيدي، تبا لي ولفعلتي، ما الذي فعلته بنفسِي؟! ما الذي احتببطه على ظهري؟ من ينقذني وانا على أسوء حال حالتي؟

أجابته نفسه و أرشدته الى طريق الرحمة السالك

- عليك بالتوبة لا منجى لك الا التوبة
- نعم انها التوبة، ولكن كيف أتوب؟ وبماذا أقدم على العزيز الجبار؟
- يا أيها المسكين أين انت عن قوله تعالى " ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا" أين انت عن رحمة الله الواسعة.

- نعم، نعم، صدقتِ ايتها النفس، لا بد ان اقصد من بعثه الله
رحمة للعالمين، لا بد ان أتوجه الى محمد.

العفو العظيم

ادهش المنظر معاذ بن جبل وهو يرى شابًا طري الجسد نقيّ اللون حسن الصورة يبكي بكاء مُفجِعاً واقفاً بالقرب من باب بيت رسول الله (صلى الله عليه واله) فما كان من معاذ الا ان اقترب منه و سأله:

- ما الذي نزل بك ايها الشاب حتى أبكاك بكاء التكلّي؟
- اني في مصيبة أوردتها على نفسي فأهلكتني ... بالله عليك الا ما ساعدتني
- وما حاجتك؟!
- حاجتي هي الدخول على رسول الله.

ما اسهلها من حاجة فان رسول الله لا حُجَاب له ولا حاشية تمنع الناس عن اللقاء به، بل انه واحد منهم حتى اذا جلس بينهم كان كأحدهم لا يعرفه الداخل لولا نور وجهه وجمال بهائه، فكان الأمر هينا على معاذ، دخل على رسول الله (صلى الله عليه واله) ودموعه تتحدر متأثرا ببكاء ذلك الشاب فحيّى رسول الله صلى الله عليه واله قائلاً:

- السلام عليك يا رسول الله
- و عليك السلام يا معاذ، ما يبكيك؟
- شاب عند بابك يا رسول الله يكاد ان يموت من شدة بكائه يريد الدخول عليك وقد رق قلبي لحاله
- أدخله يا معاذ

وبلا هوادة اسرع معاذ الى الشاب مستبشرا فأدخله وأجلسه بالقرب
من رسول الله (صلى الله عليه و اله)، جلس حيث أفسح له و لم يرفع بصره
خجلا من رسول الله ... ينشج نشيجا عاليا،

تمالك نفسه فانقطع بكأؤه، مسح دموعه بكميه وقال:

- السلام عليك يا رسول الله و يا نبي الرحمة

ردّ عليه رسول الله السلام قائلا:

- و عليك السلام، ما يبكيك يا شاب؟
- كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوبا إن أخذني الله عز وجل
ببعضها أدخلني نار جهنم؟ ولا أراني إلا سيأخذني بها ولا
يغفر لي أبدا.
- هل أشركت بالله شيئا؟
- أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئا.
- أقتلت النفس التي حرم الله؟
- لا، يا رسول الله
- يغفر الله لك ذنوبك و إن كانت مثل الجبال الرواسي.

قال الشاب وقد عاد للبكاء فانطلقت دموعه:

- إنها أعظم من الجبال الرواسي.

فقال نبي الرحمة و إمام الأمة مذكرا بوسع رحمته تعالى

- يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها
ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.
- إنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها
وما فيها من الخلق

- يغفر الله لك ذنوبك و إن كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش و الكرسي.
- إنها أعظم من ذلك

نظر النبي (صلى الله عليه وآله) إليه نظرة الغضبان ثم قال له موبخاً:

- ويحك يا شاب، ذنوبك أعظم أم ربك؟
- خر الشاب لوجهه ساجدا وهو يقول:
- سبحان ربي لا شيء أعظم من ربي، ربي أعظم يا نبي الله من كل عظيم

فقال له النبي صلى الله عليه وآله مَطْمَئِنًا :

- فهل يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم؟
- لا و الله يا رسول الله.
- سكت الشاب و حبس دموعه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله:

- ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنوب واحد من ذنوبك؟
- انها ساعة الاعتراف بين يدي رسول الله فان الله بعد ان امرنا بالذهاب اليه امرنا بالاعتراف بين يديه والاستغفار

- بلى أخبرك يا رسول

وراح يسرد جريمته النكراء معترفا بتقصيره واسرافه امام رسول الله و هو يعلم ان اعلان الندم عند رسول الله هو اعلان للندم عند الله عز وجل ... أتم قصته و ذُهلَ من سمعها ممن كان حاضرا قال الشاب:

- فما أظن أنني أشم ريح الجنة أبداً، فما ترى لي يا رسول الله؟

بان الغضب على محياه صلى الله عليه واله اشار اليه ان يقوم من عنده و قال له:

- تَنَحَّ عني يا فاسق، إني أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النار!

خرج الشاب مطرودا من باب الرحمة الإلهية، مطرودا من عند رسول الله، اضطرمت نيران ندمه، تفاقم خوفه، ضاقت عليه الارض والسماء، خنقته أنفاسه، لا يرى لنفسه مهربا و لا ملجأ، انقطع امله من كل مخلوق فتعلق قلبه بالخالق خاطب نفسه عازما:

- ان كان رسول الله قد طردك فاعلم ان لا ملجأ لك من الله الا الله .

هذا ما أراده رسول الله حينما طرده، لئلا يتجراً احد متكلا على رحمته تعالى و لكي يستشعر عظيم جريرته فيتوجه هذا العبد المذنب بكل وجوده الى خالقه و بارئه ...

تزوّد من المدينة بما يحتاجه من الخبز و الماء ... ترك المدينة خلفه، توجه نحو بعض جبالها ليختلي فيها، لبس ثوبا منسوجا من شعر الماعز الأسود خشناً غير مريح ،وهو ما يسمى بالمسح، علامةً على الحزن والغم، غل يديه جميعا إلى عنقه و اخذ يبكي وينادي تحت الشمس الحارقة :

- يا رب هذا عبدك بهلول، بين يديك مغلول، يا رب أنت الذي تعرفني، وزل مني ما تعلم سيدي! يا رب أصبحت من النادمين، أتيت نبيك تائبا فطردني وزادني خوفا، فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك أن لا تخيب رجائي، سيدي و لا تبطل دعائي ولا تقنطني من رحمتك.

فلم يزل على تلك الحال لم ييأس وان طرده رسول الله، لم ييأس وان تأخر عنه الجواب، لم ييأس وان أكلت الشمس محاسنه، لم ييأس وان اذهب الندم قوته وتقشّر وجهه وتشققت شفتاه، لم ينقطع عن البكاء حتى اسقط البكاء رموش عينية و قرّح جفنيه.

بقي على تلك الحال تبكي له السباع والوحوش أربعين يوما وليلة، فلما تمت له الأربعون رفع يديه إلى السماء وقال:

- اللهم ما فعلت في حاجتي؟ إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوحِ إلى نبيك، وإن لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتي فعجل بنار تحرقني، أو عقوبة في الدنيا تهلكني، وخلصني من فضيحة يوم القيامة.

في تلك الأثناء نزل الأمين جبرئيل على النبي الأكرم:

- يا حبيب الله يقول عز وجل؛ أذاك عبي يا محمد تائبا فطردته، فأين يذهب؟ و إلى من يقصد؟ و من يسأل أن يغفر له ذنبا غيري؟

ثم قرأ عليه ما أنزله الله تعالى في ذلك الشاب التائب... غاب الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج متبسما يتلوا قوله تعالى:

" و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين"

ثم التفت الى أصحابه قائلا :

- مَنْ يدلني على ذلك الشاب التائب؟

فاخبره أحدُهم بموضعه...

مضى إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنفسه ومعه جمعٌ من أصحابه يريدون أن يشهدوا العفو العظيم والرحمة الواسعة، انتهوا إلى ذلك الجبل فصعدوا إليه يطلبونه فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين، مغلولة يداه إلى عنقه، قد اسودَّ وجهه، وتساقطت أشفار عينية من البكاء، وهو يحثُّ التراب على رأسه ويبكي ويقول:

- سيدي قد أحسنت خلقي وأحسنت صورتني، فليت شعري ماذا تريد بي؟ أفي النار تحرقني؟ أو في جوارك تسكنني؟ اللهم إنك قد أكثرت الإحسان إلي وأنعمت علي، فليت شعري ماذا يكون آخر أمري؟ إلى الجنة تزفني؟ أم إلى النار تسوقني؟ اللهم إن خطيئتي أعظم من السماوات والأرض ومن كرسيك الواسع وعرشك العظيم، فليت شعري تغفر خطيئتي أم تفضحني بها يوم القيامة؟

دنا منه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأطلق يديه من عنقه إعلانا عن حرите وخروجه من الذنب، نفّض التراب عن رأسه بيديه الكريمتين و ترَحَّم بحاله:

- يا بهلول، أبشر فإنك عتيق الله من النار، وقد انزل فيك "و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين"

ثم التفت رسول الله الى أصحابه، أجال نظره فيهم و قال لهم
يخاطبهم و يخاطب الأجيال القادمة:

- هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول.

والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين
و عجل فرجهم يا كريم

وليد الشويلي
٨/شعبان/١٤٤٦ هـ